سرير من الحور

• بسمة الخطيب*

على رصيف الشارع المعبَّد تمدّدتُ داخل قشرتي السميكة. تنسّمتُ هواءَ ليل بيروت النديّ. بَسَطْتُ أغصاني الخضراء لألتقطَ بأطرافِ حواسّي ذرّات الشجن التي فاحت في الشارع، خارجةً من نوافذ الشقق المجاورة.

خفضتُ بصري لأرى جذعي: أهو بنيّ أم أخضر أم غير ذلك؟ كم دائرةً داخله؟ كم دودةً تسعى فيه؟ وكم حشرةً تلوذ إليه؟

بعد قليل، ارتخت أغصاني وأنا أَشْعر بذبول الوحدة. كانت أقربُ شجرة إليّ تبعد عني عشرةَ أمتار.

بقيتُ واقفةً أَسْتشعر الخريف في الخواء. بدأتْ بشرتي تجفّ، وراحت أوراقي تَفْقد رطوبتَها. عرفتُ أنّ الخريف آتٍ، وأنّي سأفقد أوراقي قريبًا من دون أن يأبه أحد لعُريي. وعرفتُ أنّ طفلاً سيَهْرس أوراقي الأرجوانية اليابسة، مستمتِعًا بخشخشتها في ذهابه إلى المدرسة، وقد يختبئ بي عن صديقته، وقد يبول عند قدمي. كما أنّ الربيع سيَلْحق به، وستَنْبت أوراقي من جديد، وستسكنني العصافيرُ. لن تهرب مني كما كانت تفعل عندما كنتُ امرأة. أما الطفل فسيعود، وقد صار شابّاً، ليَحْفر اسمَه واسمَ صديقته على جذعي.

◆ ◆ ◆

من النافذة المطلّة على الشارع الغارق في الانتظار، أرسلتُ نظرتي الأخيرة إلى الرصيف المرصّع بالأشجار الصامتة، وعُدتُ لأجمع أوراقي عن المكتب قبل أن أغادر إلى البيت، منهكةً، مرتبكةَ المشاعر، سعيدةً من دون سبب أحيانًا، وتعسةً من أجل جميع الأسباب أحيانًا أخرى. تركتُ النافذةَ والشجرةَ اللتين أتشاغل بهما عن هواجس تقلقني، وعُدت تلك المرأةَ المغروسةَ خلف مكتب، العابثةَ بأوراقٍ غيرِ خضراء للأسف، تَحْلم بأن تصبح شجرةً تصنع الشعرَ لا تَشْحذه، وتصنعَ الأوكسجين لا لتنشُّقِه فقط.

◆ ◆ ◆

غادرتُ المكتب مسرعةً نحو البيت، كعادتي عندما يداهمني الليلُ في العمل. استولتْ عليّ فكرةُ الارتماء فوق سريري فور وصولي. حثثتُ الخطى على الرصيف. أحسستُ أنّ الطريق تطول وتطول.

تعبتُ، فجلستُ على مقعد خشبيّ ملاصقٍ لسور حديقة مهملة. كان من خشب الحور. أَسِفْتُ لأنّهم يقطعون هذه الأشجار الفاتنة الهادئة؛ لا بدّ أنّها تَسْقط صامتةً كما تَسْقط امرأةٌ عزيزةُ النفس.

مَسَّدتُ وجهَ المقعد الحزين بباطن كفّي، وشعرتُ به يبتسم وكأنّه انتظر هذا الدفء منذ وقت طويل، أو كأنّه اختَزَنَ صقيعَ الانتظار منذ دهور. خطوطُه المتماوجة كادت تَنْطق وتقول:

«ليتني خُلِقتُ امرأةً ولم أُخلقْ شجرة!

ليتهم احتَفَظوا على الأقّ بجذوري أو بأغصاني ولم يُلْقموها أفواهَ المدافئ.

ليتني خُلقتُ امرأةً لأغيّر مكاني إذا ضاق بي، ولأذهبَ إلى القمر إذا احتجب عنّي، ولأبكي إذا نهشتني أسنانُ منشارٍ كهربائيّ.»

◆ ◆ ◆

لم أعرف كيف أخفّف حزنَ الخشب إلاّ بأن أمدّد جسدي فوقه متوسِّدةً ساعدي، وأمنحَه كلَّ دفئي، وأشاطرَه أحلامَه المسلوبةَ كأحلامي.

بيروت

* ـ كاتبة لبنانية شابّة.